مصطفى محمود

أكذوبة اليسار الإسلامي



دار المعارف

مصطفى محمود

أكذوبة اليسار الإسلامي

الطبعة السادسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ الماركسية مع الدين

تاريخ الشيوعية مع الدين تاريخ مثير يستحق التحليل والتأمل فالمذهب الماركسي فى أصل منهجه يرفض الدين والغيبيات ولا يعترف بإرادة أو مشيئة خارجة عن الكون المادى ، ويرى أن الكون المادى يفسر نفسه بنفسه بدون حاجة إلى افتراض قوة إلهية سابقة على الوجود . . وأكثر من ذلك يرى أن الدين عقبة فى سبيل التطور وأنه أفيون ومخدر وقوة رجعية معطلة تؤدى بالطبقات الكادحة إلى الرضا والقناعة والنوم على حرمانها ، فى انتظار جنات وهمية فى الآخرة ، وأن الدين هو الحليف الطبيعى للإقطاع والرأسمالية وأنه يعطى الأغنياء سنداً شرعياً إلهياً على حين يقيد الفقراء بقدرية لا فكاك منها . . ولهذا بدأ تاريخ الشيوعية بالحملة على الدين وعلى رجال الدين فهدم ستالين الكنائس واعتقل الرهبان وطارد القساوسة وألغى التعليم الديني من المدارس واستبدله بتدريس الإلحاد وجعل من الإلحاد شرطاً أساسياً للعضوية فى الحزب . . وظل هذا هو الحال حتى واجه ستالين مشكلة مصيرية فى حربه مع الألمان قلبت جميع الموازين . . حينما رأى الفلاح الروسى يعطى ظهره للعدو

ويولى الأدبار . . فلماذا يحارب ولماذا يموت إذا كان قائده الأعلى يقول له . . إنه لا آخرة ولا بعث بعد موت . . ولا امتياز لشهيد على خائن، وإنما الكل ذاهب إلى التراب . . ثم يدافع عن ماذا وعن من . . والشيوعية مذهب الدولة الرسمى ترى أن الوطنية رجعية والقومية تخلف فليذهب كل شىء إلى الجحيم إذن.. ما دام الشجعان والجبناء قد استووا فى رقدة الموت التى لا قيام بعدها ولا حساب ولا سؤال ولا كرامة .

أمام هـــذا التخاذل الخطير رأى ستالين نفسه مضطراً ليعيد الحماس إلى هذا الفلاح أن يعود فيعترف بالوجود الضرورى للكنيسة وأن يفتح أبواب الكنائس للصلاة ، وأن يرفع الاضطهاد عن رجال الدين وأكثر من هذا يشجع الشعور الوطنى والقومى . . فعل هذا مضطراً برغم تناقضه مع جوهر تفكيره كشيوعى ماركسى .

وتغيرت التعليمات القادمة من موسكو إلى جميع الخلايا السرية فى كافة البلاد بعدم فتح معركة مع الدين وبالتنبيه على الجميع بترديد الجواب التقليدى .. إن مسألة الدين غير مطروحة فى الأيديولوجية الماركسية .. وأن الشيوعية لا تتعرض لمسألة وجود الله . . وإنما هدفها قضية العدل الاجتماعى ومحاربة الاستغلال . . وأن الأممية ليست ضد الوطنية .

ثم خطت الشيوعية بعد ذلك خطوة أكثر إيجابية حينما وجدت أن هذه السلبية من جانبها لم تثمر المهادنة المطلوبة بينها وبين الدين فسمعنا عن بعثات للحج تخرج من موسكو وسمعنا عن الرفيق محملوف يلقى خطبة الجمعة من مسجد أزبكستان وقرأنا عن المفتى عبد الرحمانوف يهدى مصحفاً شريفاً إلى هذا الزائر المسلم أو ذاك .

ثم رأيناهم لا يكتفون بمحاولة التودد للمسلمين ، بل رأيناهم يتجاوزون هذا إلى محاولة الزواج السفاح بالإسلام ، فسمعنا عن الجماعة الماركسية الإسلامية فى إيران ثم رأينا الرفاق الحجاج فى مصر وعلى رأسهم الحاج خالد محيي الدين يقودون المسيرة الماركسية وقد لبسوا لنا لباسنا وقرأنا لفلاسفتهم يكتبون عن اليسار فى الإسلام .. وأصبح الشعار الجديد .. نحن نختلف مثلكم مع الفلسفة الماركسية ولكننا نؤمن بالمنهج الماركسى الاجتماعى وهو لا يتعارض مع الدين . . فتعالوا يا إخوان إلى كلمة سواء نأخذ من ماركس ما يوافقنا وندع ما يتناقض وتراثنا وتقاليدنا . ونسى الرفاق أو تناسوا أن الماركسية فكر شمولى إذا أخذت بعضه ورفضت بعضه فقد هدمته لأنه كل مترابط متماسك . . ثم ماذا نأخذ وماذا ندع إذا كان صلب المنهج الاجتماعى الماركسى وهو « ملكية الدولة لوسائل الإنتاج » وهو ما نعرفه عندنا بالتأميم والقطاع العام قد جربناه وطبقناه وانتهى باقتصادنا إلى الخراب . . فإذا رفضنا هذا البند وعدنا إلى الانفتاح وسمحنا بالاستثمار الفردى واعترفنا بالقطاع الخاص كضرورة لا يتوازن الاقتصاد بدونها . . فماذا بقى من المنهج الماركسى لنأخذ منه وندع . . وماذا يتبقى لنا ولكم من علاقة بهذا الفكر .

ولكنها مخادعة . . وتمويه .. ومهادنة مؤقتة .. سببها العجز والفشل والعقم الأيديولوجى وهزيمة الماركسية فى جميع المواقع التى التحمت فيها بالدين .. فلم يبق لها إلا تغيير الملابس والتمويه بالشعارات واستبدال العداوة القديمة بالغراميات المفتعلة . . . أو ما يسمونه فى قاموسهم باستراتيجية المرحلة . . وهو اللفظ الجديد المهذب للنفاق والانتهازية

والتدليس والكذب بهدف الوصول . . ثم بعد الوصول تكون تصفية المواقف وتصفية الأشخاص . . كعادة الشيوعية فى كل تاريخها . .

ومن المؤسف أن نجد إلى الآن وبين مثقفينا فى الوطن العربى من يروج للفكر الماركسى ويدعو له برغم ما تبين من هزاله وتناقضاته وثغراته وبرغم ما حدث من غروب هذا الفكر وانقراضه فى أوربا مع الأفكار الأخرى التى غربت وانقرضت مثل الفرويدية والوجودية والعبثية وسائر الموضات التى لمعت واختفت فى الأربعينات من هذا القرن .

ولكن على ما يبدو لى دائماً أن الأمر مع الماركسية مختلف . . فالشيوعى لا يدعو للماركسية لأنها حق ولكنه يدعو لها لسبب آخر أعمق وهو أنها توافق هواه ورغبته الباطنة فى أن يهدم ويثأر وينتقم . . فهى تلتقى مع ميوله العدوانية ومع بذور الحقد فى نفسه خاصة إذا كان فقيراً مطحوناً وفى أدنى السلم الاجتماعى ويحلم بالقفز إلى أعلى السلم بانقلاب يغير به كل شىء . . فحماسه للمذهب حماس شخصى وإن بدا فى الظاهر حماساً اجتماعياً .

وأحياناً يكون الشيوعى مثالياً مخدوعاً ، بهرته شعارات العدالة ونصرة الفقراء ولم يسعفه تخلفه العقلى فى اكتشاف الخدعة .

وأحياناً يكون من المرضى بانفصام الشخصية وهؤلاء هم الحجاج الذى يسجدون إلى كعبة مكة وكعبة موسكو فى الوقت نفسه ويتعاملون مع الله بأسلوبين ويتكلمون بلغتين وكأن الواحد منهم اثنان لا يعرف الواحد منهما الآخر .

ولا أعرف إنساناً يصلى فى الصباح لمن ينكر فى المساء إلا هذا

الحاج الشيوعى الخادع المخدوع الذى افتقد الوحدة والوجهة والطريق وانقسم على نفسه ، فهو يسبح بقلبه لمن يرفض بعقله وهو يؤمن بالشىء ويتصرف على نقيضه ، وهو يدور حول جثمان لينين المحنط فى الكرملين نبيهم الذى غير التاريخ ويقول فى الوقت نفسه لا إله إلا الله لا سواه يغير التاريخ . . فكيف بهذا الولاء يجمع بين لينين ومحمد فى قلب واحد وكل منهما يمثل منهجاً يرفض منهج الآخر ابتداء وانتهاء . . إلا أن نكون أمام سيد المنافقين فى هذا العصر . . علم بذلك أم لم يعلم أدرك ذلك فى نفسه أم لم يدركه . .

فهؤلاء هم مرضى القلوب . . وهم أهل الشرك الخفى . .

وهم إحدى ثمار هذا الغزو الفكرى المحموم فى بلادنا من سنين . والمعركة سائرة إلى ذروتها . .

والتاريخ يسير إلى ما خطه الله فى كتابه وليس إلى ما خطه ماركس فى منهجه الجدلى .

اليمين واليسار فى الإسلام

شر أنواع الافتراء الذى يروجه الشيوعيون هو القول بأن الإسلام يسارى أو أنه بدأ يساريًّا على يد محمد عليه الصلاة والسلام ثم انشق إلى يمين ويسار فأبو بكر يمين وعمر بن الخطاب يسار ثم تغلب الاتجاه اليمينى على يد التابعين من أمويين وعباسيين وانتهى بالإسلام إلى مالك رجعى عضوض وإلى يمين محافظ متخلف .

وهو نوع من التلبيس الساذج ومحاولة لركوب الإسلام وتطويعه للأغراض المادية الجدلية ومكائدها ومحاولة لاصطياد الشباب الإسلامى (خاصة المتحمسين منهم للإسلام عن جهل) إلى شراك العصبة اليسارية .

والقول بأن أبا بكر كان يمينيًّا وعمر بن الخطاب كان يساريًّا كالقول بأن أبا بكر زملكاوى وعمر بن الخطاب أهلاوى ، فكلمات يمين ويسار كلمات جديدة ولم تكن لها مدلولات فى قريش ومحاولة تأصيل معنى كلمة يسار بأنه أية ثورة تستهدف التغيير الاجتماعى نرد عليه بأن الإسلام لم ينزل كثورة تغيير اجتماعى وإنما جاء كدعوة تذكير بالعقيدة التى نزلت على آدم وعلى جميع الأنبياء ثم تقادم عليها

العهد كل مرة وحرفها المحرفون . . فالإسلام عودة إلى العقيدة التى نزلت على آدم وتذكير بالتوحيد وتعريف بالله وصفاته وأسمائه وأحكامه وشرائعه . . وليس الإسلام أبداً ثورة تغيير اجتماعى وإلا كان محمد العظيم صلوات الله وسلامه عليه هو مجرد جيفارا أو كاسترو أو لينين (وهو مايريدونه وما يدسونه علينا) .

والعدالة الاجتماعية فى الإسلام هى نتائج تأتى بالتبعية للتوحيد وتقوى الله وطاعة وصاياه ولكنها ليست جوهر التنزيل .

وبهذا المعنى لا يكون الإسلام ثورة تغيير بل كلمة تذكير وتثبيت للقديم الأزلى وعودة إلى كلمة لا إله إلا الله الأولى فى صفائها . فلا يسار هنا حتى بالمعنى التأصيلى لكلمة يسار . . وأيضاً لا يمين . . لأن اليمين واليسار كليهما نبات الأهواء والمصالح البشرية . . أما الدين فهو تنزيل إلهى لا يتبع هوى أحد ولا يتملق البروليتاريا ولا يجامل عاملا أو فلاحاً ولا يحرض أحداً على أحد . . بل هو يتكلم عن الصراط الحق . . الصراط المستقيم . . صراط الاعتدال بين جميع المتناقضات ، ذلك الصراط الذى ينحرف من يخرج عنه باليمين كما ينحرف من يخرج عنه باليسار .

ثم إن ثورات لينين وجيفارا وكاسترو وغيرهم من أئمة المكر البشرى كانت كلها تحاول أن تنصف الفقراء بالانتقام من الأغنياء . وكانت كلها دعوات تحريض لتذبح الطبقات بعضها بعضاً . . والعدالة فى تلك الثورات لم يكن لها من سبيل إلا نزع الملكيات والمصادرة والاعتقال وفرض الحراسة والتعذيب ، ولذلك انتهى الإصلاح الاقتصادى فى كل منها إلى الأنهيار الاقتصادى لأن الانتقام من القلة النشطة

المنتجة أدى إلى هجرتها وتركها للميدان والهرب بجلدها وبخبراتها وترك البلاد تستغلها طبقة جديدة من أعضاء الحزب وألوف الموظفين الكسالى الذين فقدوا الحافز فأخلدوا إلى النوم فى مكاتبهم . . وبذلك هبط الإنتاج . . وانتهت الثورة إلى شعارات فارغة .

أما العدالة الاجتماعية فى الإسلام فسبيلها مختلف تماماً . . فهى لا تنتصف للفقراء بالانتقام من الأغنياء . . ولكنها تحاول أن تحيي ضمير الأمة وتحاول أن تنشر المحبة والإخاء فتجمع ولا تفرق وتوحد ولا تشتت وتشجع ولا ترهب ، فهى تعالج الأمر من جذوره بأن يضع الغنى يده فى يد الفقير ويدفع عن رضى واقتناع حقاً معلوماً من ماله زكاة وإنفاقاً وضرائب . . دون أن يتعدى عليه أحد بنزع ملكية أو فرض حراسة أو اعتقال أو امتهان أو تعذيب .

والفرق بين الإسلام والشيوعية هو الفرق بين الحلم والسفاهة . . هو الفرق بين السماء والأرض . . بين التنزيل الإلهى والطاغوت البشرى . . بين صفاء النبوة الملهمة وخبث المكر المغرض . . والحق أنه لا يوجد وجه تقارب ولا وجه شبه بين الاثنين .

ومحاولة التخليط فى المفاهيم وركوب موجة الإسلام والهتاف بشعاراته أو تلبيسه تلك الشعارات الدون من يمين ويسار هى لون آخر من ألوان التدليس .

ثم لا أدرى لم يتماحك أصحابنا الرفاق المراكسة اليوم بالاسلام فيلبسون شعاراته مرة ويلبسونه شعاراتهم مرات .

أليس ذلك دليلا على كساد بضاعتهم ، وعلى أنهم لم يعودوا قادرين على الترويج لفلسفتهم ، وعلى أنهم أدركوا أن سوق هذه الفلسفة قد كسد وانتهى إلى البوار التام . . وأن ثغرات المذهب قد افتضحت . . فلم يعد لهم إلا لبس الأقنعة والتنكر وانتحال الأفكار وتخليط المفاهيم والتسلل إلى القلعة الوحيدة الصامدة من داخلها ومحاولة دخولها فى زى الدراويش والمريدين لتخريبها من الداخل .

أليس هذا هو دأب الطليعة الجديدة من الرفاق الحجاج .

لا هم تقدميون
ولا علميون
ولا موضوعيون

هناك شعارات .. من كثرة مارددها مروجوها ثم رددتها الصحافة من بعدهم . . تصورنا أنها حقائق مع أنها محض أكاذيب . . وأكاذيب فاضحة اكتسبت جذورها من مجرد التكرار والطرق المستمر على الأذن .

ومن هذه الأكاذيب . . أن اليسار هو التقدمية وأن ما سواه من الاتجاهات رجعى . . وأن الدين أفيون . . وأن الشيوعية تحرير . وأن روسيا قلعة التقدم فى العالم . . وأن المعسكر الشرقى هو جنة العمال والمعسكر الغربى هو جحيم البروليتاريا وجهنم الاستغلال .

وبعض هذه الكلمات قد اكتسب قيمة تجريدية فأصبح له قدرة ذاتية وتأثير ذاتى . . مثل كلمة . . يسار . . فنرى السذج يتناقلون هذه الكلمة على أنها بديهية . . فلان يسارى يعنى عندهم أنه على حق . . دون أن يحاول الواحد منهم أن يفهم معنى هذا اليسار وإنما يصدق الأمر تصديقاً حيوانياً . . ويردده فى آلية وتقليد ببغائى وكأنما الأمر حقيقة مفروغ منها .

ولو أنه كلف نفسه عناء التفكير. ولو قليلا من التفكير. لتغير حكمه كثيراً.

فماذا تعنى كلمة يسار فى بلادنا مثلا . .

ودعونا نفكر ، فى حياد شديد .

إن كلمة يسار فى بلادنا وفى كل بلاد العالم وفى قاموسها الأصلى تعنى فى أقصى حالاتها الوصول إلى العدل بحل جذرى ووسيلة جذرية وذلك بانتزاع رأس المال من أصحاب رأس المال وانتزاع الأرض من أصحابها والمصانع من ملاكها وانتزاع ملكية وسائل الإنتاج من كل يد منتجة . . ليكون كل هذا ملكية دولة لا ملكية أفراد ويكون كل الشعب موظفين فى هذه الدولة . . وهو ما نسميه عندنا بالتأميم أو القطاع العام . . ومعناه ببساطة أن يحول الحاكم الشعب بأسره وبجرة قلم إلى عبيد سمة . . لقمتهم جميعاً فى يده . . ورزقهم فى يده . . وحريتهم بالتالى فى يده . . وبذلك يحول الجميع إلى قطيع بلا رأى وبلا حول وبلا طول . . وبلا جرأة فى شيء وبلا حافز إلى شيء.

وما تلبث أن تنتهى هذه المؤسسة العامة إلى مجتمع من اللامبالاة والكسل وفقدان الهمة والإهمال وسوء الإنتاج ويصبح حالها تماماً مثل حال الأرض الوقف وهو ما نرى صورته حولنا فى كل مرافق القطاع العام والنتيجة هبوط الإنتاج فى النوع والكم . . ثم انقلاب الآية فإذا ما تصوره الفلاسفة اليساريون على أنه حل اقتصادى ينتهى إلى العجز الاقتصادى . . فلا نجد علاجاً سوى العودة إلى الانفتاح وإلى مد الأيدى إلى القطاع الخاص وإلى إغراء المستثمر الفردى من

الداخل ومن الخارج . . نفعل ذلك فى بلادنا . . ويفعلون هم أيضاً ذلك فى بلادهم روسيا . . وفى رومانيا والمجر وبولندة ويوغوسلافيا وفى كل معاقل اليسار . . يعود الكل فيأخذ خطوة واسعة إلى اليمين.

إذن لم يكن اليسار هو الحق .

ولم يكن اليسار تقدماً بل كان تخلفا . . لم يكن نظرة مستقبلية وإنما نظرة متعصبة وغبية .

ولم يكن ازدهاراً اقتصاديًّا . . بل انهياراً اقتصاديًّا .

ثم ماذا يعنى اليسار أيضاً . .

إنك لا يمكن أن تنزع الأرض من أصحابها والمصانع من ملاكها ووسائل الإنتاج من يد كل منتج دون أن تستخدم الجيش والبوليس وتسجن وتعتقل وتشرد وتهدد وتضرب بيد من حديد .

ومن هنا كان القهر والعنف والنظم القمعية من خصائص اليسار . .

ثم إنه فى بلد صغير مثل مصر لا يمكن أن تفعل هذا دون أن تعتمد على معونة دولة كبرى مثل روسيا فتدعو إلى بلدك النفوذ الروسى والأموال الروسية والخبراء الروس ثم ترسف فى النهاية فى الديون الروسية والضغوط الروسية والشروط الروسية . .

ثم تكتشف بعد فوات الأوان أن روسيا ليست دولة أيديولوجية بقدر ما هى دولة كبرى تتصرف بمنطق الدولة الكبرى ذات المصالح. وأنك أمام استعمار من نوع جديد . . استعمار مذهبى عقائدى يؤلب عليك أهلك . . ويحرض الأخ على أخيه والابن على أبيه ويزرع الحقد

والحسد والبغض والكراهية فى طريقك ويضع لك الشوك فى حلقك :

ذلك هو المضمون الخافى داخل كلمة اليسار . . وفلان « يسارى » يعنى أنه سوف يأتى لك بكل هذا البلاء . . فليس اليسار تقدماً ولا الشيوعية تحريراً وإنما هى أكاذيب صدقناها من فرط ما رددها أصحابها وأمعنوا فى تكرارها على مسامعنا وطبعوها روجوها وهتفوا بها وحلفوا بها ونسجوا عليها الروايات ودبجوا المقالات وألفوا المسرحيات . . وهى أكاذيب فى أكاذيب فى وأكاذيب . .

وحيثما تحرك اليسار فى بلد تحرك معه الخراب وسال الدم . . فى أنجولا فى البرتغال فى أسبانيا فى نيجيريا فى تايلاند فى لبنان فى الحبشة وفى القاهرة فى أحداث ١٨ ، ١٩ يناير .

مظاهرات اليسار فى عهد ديجول أشرفت بالاقتصاد الفرنسى على انهيار كامل . . وإضرابات العمال فى إنجلترا هبطت بالإسترلينى إلى الحضيض .

واليسار فى أى بلد يعيش على ما يتيحه النظام من حريات فإذا تسلم هو زمام الحكم صادر الحريات وقطع الألسن وملأ المعتقلات وأعطى جميع الأبواق لصوت الحزب وحده .

واليسار يحارب الحرية فى بلده كما يحاربها خارج بلده .

الدبابات الروسية دكت صوت الحرية فى المجر وخنقت صيحة الديموقراطية التى أطلقها دوبتشك فى تشيكوسلوفاكيا .. لأنه لا شىء يفضح كذبة اليسار والشيوعية مثل الحرية والفكر الحر والنقاش الحر .

وليس صحيحاً أن المعسكر الاشتراكى هو جنة العمال والمعسكر الرأسمالى هو جحيم العمال . . فتلك كذبة أخرى . . فالعمال فى أمريكا وإنجلترا والنمسا والسويد والنرويج وألمانيا يتقاضون أجوراً أعلى ويعيشون فى مستوى من الوفرة والرخاء أعلى من رفاقهم فى روسيا والمجر وبولندة والصين .

والعمال فى البلاد العربية يهاجرون من البلاد الاشتراكية سعياً وراء أجور أعلى فى الخليج والسعودية والكويت وهى البلاد التى يقول عنها أصحابنا إنها رجعية .

تلك هى الحقائق . .

ولا يجدى فى تزييف هذه الحقائق ألوف المنشورات ولا تجدى أبواق الإذاعات الموجهة . . ولا تجدى أغانى المرتزقة . . ولا أشعار الرفاق التى تصف الأبيض بأنه أسود . . وتهلل للميت على أنه حى . .

ونحن ولا شك نعيش فى عصر التزييف والمزيفين ، ونروج لوناً جديداً من الدعارة بالكلمات والزنا بالمعانى والمسافحة بالحروف .

وهل دعوى أصحابنا بأن الدين أفيون الشعب إلا لوناً صارخاً من هذا الزنا بالألفاظ ؟

وهل الدين إلا ذروة اليقظة والانتباه .

وماذا يكون حال المسلمين الذين يقول لهم ربهم : (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ٢٨٤ — البقرة .

ماذا يكون حال مثل هؤلاء المسلمين إلا الخوف الدائم واليقظة

الدائمة والانتباه الدائم لكل خاطر يخطر فى القلب . . فهذا هو الله يحاسبهم على مواطن النيات كما يحاسبهم على شواهد الأعمال .

فأين لهم النوم . . .

وأين هم من سكرة الأفيون .

إنما المساطيل حقاً وأهل الغفلة هم الذين يعيشون فى خدر الأوهام الباطلة هم أهل المذاهب المادية من شيوعيين وغيرهم . ممن تصوروا أن لا شيء وراء هذه الحياة ولا شيء بعدها فإن غنموها فقد غنموا كل شيء ولو بالقتل وسفك الدماء فلا حسيب من بعد ولا رقيب .

هؤلاء هم الذين يعيشون فى خدر الأفيون حقاً . .

هؤلاء هم الذين خدرتهم أطماعهم وأهواؤهم وشهواتهم .

وهؤلاء هم الذين أعمتهم أحقادهم وأضغانهم فتصوروا أنه لا وجود لأى شيء وراء هذه الأحقاد والأطماع . حسبهم لحظتهم فليعيشوها . . أو فليسرقوها . . ثم لا يعبأوا بشيء بعد ذلك . .

وتلك هى طمأنينة الغفلة وراحة الأفيون وسكينة آكلى المخدرات .

وتلك هى حبوب الهيروين التى يروجونها .

ومن أكثر الأكاذيب شيوعاً . . قولهم الدائم الدائب . . بأن الماركسية علم ودعواهم بأن كلامهم هو الكلام العلمى وفكرهم هو الفكر الموضوعى وإطلاقهم وصف الاشتراكية العلمية على مجموعة الأفكار الظنية والمنشورات التحريضية التى يروجونها .

ولم يكن كارل ماركس علمياً حينما انتقى من التاريخ بضع مراحل على هواه ولفق منها مذهباً طبقه اعتسافاً على التاريخ كله . . وكان

حاله مثل حال اليهودى الآخر فرويد الذى أخذ من دفتر الهستريا بضع حالات، ولفق منها مذهباً فى الغريزة الجنسية طبقه اعتسافاً على كل الأصحاء الأسوياء من البشر فجعل من البشر مجموعة من القرود تلهو بأعضائها التناسلية فى جبلاية ، كما تصور شقيقه الآخر كارل ماركس عجلة التاريخ تحركها يد الصراع الطبقى .

وتعمد كارل ماركس إسقاط مراحل كاملة من التحول التاريخى لأنها ناقضت مذهبه . . فهل كان علمياً فى استقرائه .

لقد قال ماركس إن كل انقلاب حضارى يأتى نتيجة انقلاب مناظر فى نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج .

فأين هذا الكلام من التحول الإسلامى.

لقد كان الإسلام انقلاباً حضارياً هائلا . . ومع ذلك لم يأت نتيجة انقلاب مناظر فى نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج فى قريش . وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة . . وهو بذلك يهدم كل الفكر الماركسى من أساسه . .

جاء الإسلام من البداية مقرراً المساواة فى الفرص ، وضمان حق الكفاية للمواطن وتحقيق التوازن الاقتصادى بين الفرد والمجتمع وجاء بمبدأ الملكية الخاصة والملكية العامة ومبدأ الاقتصاد الحر الموجه . . وجاء بكل ذلك فى الجزيرة العربية فى وقت لم تكن ظروف الإنتاج تدعو إليه بحيث يمكن أن نقول إن ما حدث كان انبثاقاً من واقع اقتصادى . وتحدى بذلك الماركسية ومنهجها التاريخى وحساباتها المادية

التى تحتم انبثاق كل انقلاب سياسى من انقلاب مناظر فى نظام الإنتاج وعلاقاته ..

فأين العلم فى كلام أصحابنا .

نحن أمام تلفيق أطلق عليه أصحابه وصف العلم ووضعوا عليه بطاقة الاشتراكية العلمية زوراً وبهتاناً .

ثم إن فكرة العامل الاقتصادى الواحد الذى جعل منه ماركس إلهاً تصدر عنه الأشياء وسبباً وحيداً تتداعى من ورائه كل التغيرات التاريخية فيما يسمى بالتغير المادى للتاريخ . هذه الفكرة سقطت علمياً والرأى السائد الآن فى ميدان الظواهر الاجتماعية أنه لا يوجد سبب واحد مستقل وفاعل وإنما هناك عوامل متعددة ، تؤثر فى بعضها تأثيرات متقابلة فالعامل الجوهرى اليوم يمكن أن يصبح عاملا ثانوياً فى الغد . . والعامل الاقتصادى بهذا لا يصلح أن يكون إلها تصدر عنه الأشياء .

ثم إن افتراض النقاء والطهر فى طبقة البروليتاريا (العمال) وكأنهم جنس آخر قادم من المريخ أو شعب الله المختار بحيث تسلم إليهم مقاليد حكم مطلق هو كلام غير علمى . . فالعامل والمثقف ومالك الأرض فى بلدنا هم غالباً أفراد أسرة واحدة ومن بطن واحد . .

ثم إن الماركسية التى أراد ماركس أن يواجه بها ظروف القرن التاسع عشر المتخلفة وأوضاع العامل اليدوى الكادح المطحون لا تصلح علمياً

لمواجهة ظروف القرن العشرين حيث قلبت ثورة التكنولوجيا جميع الموازين وخلقت طبقة جديدة من العمال المرفهين الجالسين أمام أزرار ألكترونية ومن خلفهم نقابات عمالية قوية وقوانين للتأمين تحميهم ضد العجز والشيخوخة والمرض .

ثم هذه الدعوى الزائفة للماركسيين بحتمية قوانينهم ، وكأنها قوانين منزلة من اللوح المحفوظ هى دعوى أخرى غير علمية فلا حتمية فى الإنسانيات .. وإنما هناك على الأكثر عناصر ترجيح وظن وتخمين واحتمالات متفاوتة . . ولا حتمية إلا فى حركة الأفلاك والكواكب وكرات البلياردو وتروس الساعات والمادة الصرفة .. وحتى المادة الصرفة ظهرت قوانين جديدة تخرج حركة الألكترونات فيها من إسار الحتمية إلى مجال الحرية والاحتمال (قوانين هينزنبرج) .

ثم إن دعوى الماركسيين بأن فكرهم شمولى يجاوب على كل سؤال ويفتح كل باب ويحل كل مشكل هو زعم فضفاض وغير علمى وهو مؤسس على الغرور والتعصب أكثر منه على النظر الموضوعى . . .

ثم ماذا تعنى المادية الجدلية بالمادة .. إنها لا تعنى الحديد أو النحاس أو الزئبق أو الخشب وإنما هى تفهم المادة فهماً تجريدياً بأنها كل ما هو خارج الذات . . يقولون بهذا مع أنهم ضد التجريد .

ثم من أين جاءوا بأن المادة سبقت الفكر فى مبدأ الكون . . ومن كان منهم حاضراً فى مبدأ الكون ليزعم أن شهادته علمية . . إنهم ما قالوا ذلك إلا رجماً بالغيب مع أنهم يصرخون بأنهم ضد كل

غيب وغيبية .. ثم إذا قالوا إن المادة قديمة وبأنها جاءت بلا خالق . .
ألا يسقطون بذلك قانون السببية ويسقطون بالتعمية العلم كله الذى يقوم
على السببية .

إن ماركس لم يقدم علماً . . ولا كانت اشتراكيته علمية . .
ولا أفكاره موضوعية . . وإنما قدم ظنوناً واصطنع تلفيقاً بهدف
التحريض والتهييج لقلب النظم الموجودة . .

ولهذا أخطأت جميع تنبؤات كارل ماركس وأخطأت حساباته
فلم تخرج الشيوعية من إنجلترا المتقدمة صناعياً ، وإنما خرجت من
الصين الزراعية وروسيا المتخلفة . . ولم ينقسم المعسكر الرأسمالى وينهار
ويتناقض وإنما انقسم المعسكر الأشتراكى نفسه وتناقض وتصارع . .
ولم تتفاقم الهوة بين العمال الكادحين وأصحاب رؤوس الأموال المرفهين
بل ضاقت .

ولقد أخطأ ماركس فى تنبؤاته لأنه لم يكن علمياً فى حساباته .

ولو كانت الماركسية علماً ثابتاً فلم اختلف فيها الأتباع وتناقضوا
وتقاتلوا ولم خرج الستالينى واللينينى والماوى والتيتوى والناصرى وراحوا
يضرب بعضهم بعضاً ويعتقل بعضهم بعضاً .

والعجيب أنك إذا حاصرت الشيوعى المحترف بكل هذه الحجج
العلمية القاطعة الدالة على فساد مذهبه فإنه لا يقلع عنه بل يزداد عناداً
فيه ويزداد لجاجة وإصراراً وعمى وتعصباً . . ثم تكتشف فى النهاية
أن هذه العلمية المزعومة ما هى إلا قناع كاذب يلبسه الأتباع والمروجون
والمهيجون وأن حقيقة الشيوعية ليست علماً ولا فكراً وإنما هى طبع

وحقد دفين وثار كمين يبحث عن مبررات ولغة مقبولة يظهر بها .

الشيوعية هي فكر فى الظاهر ولكنها خلق مادى فى الحقيقة وغلظة مادية وجاهلية لا تختلف عن جاهلية قريش . . ولهذا تنتهى المواجهة دائماً بإبراز السلاح والقتل والدم . . ولهذا تلجأ الشيوعية دائماً إلى الأساليب التحتية والتآمر والتدبير فى الخفاء حتى ولو توافر لها الجو الحر واللقاء المفتوح . . ولهذا تلجأ إلى الغوغاء وتضطهد المثقفين

ولهذا تراجعت الأحزاب الشيوعية فى مؤتمرها الأخير بجنيف وساومت وتنازلت . . تنازلت حتى عن أحشائها وساومت حتى فى جوهر فكرها . . تنازلت عن دكتاتورية البروليتاريا وتنازلت عن الأممية وسمحت بالقوميات . . ولم تكتف بالتنازل عن عدائها التقليدى للدين وإنما اعتنقت الدين ولبست مسوحه فعلت كل هذا من أجل الوصول إلى الحكم بأى سبيل . . وقالت للأتباع :

الوصول إلى الحكم بأى سبيل ولو بتغيير جلدنا . .

فهل هؤلاء هم أهل العلم الحق . . أو أهل الانتهازية والميكافيلية والوصولية وعشاق السلطة والسفاحون الجدد من كل الملل والنحل .

أقول هذا لشبابنا البرىء المخدر بالشعارات الذى يسير بحسن نية وراء دعوى العلمية والتقدمية . . والأمر أبعد ما يكون عن العلمية والتقدمية . . بل هو فى الواقع جاهلية مادية وتخلف ذهنى وتآمر ماكر وحاقد يضمر الثأر والتنكيل بالمجتمع كله ويخفى شهوة أقلية من هواة السلطة تريد أن تركب الغوغاء لتصل إلى الحكم وترفع فى مسيرتها رايات السلام وتنشد أناشيد السلام وتخفى الخناجر بين أنيابها والغل تحت إهابها.

وأقول حذار . . . . فسندفع جميعاً الثمن . .

لن نتقدم شبراً واحداً إلى الأمام . .

بل سنتقهقر مئات السنين إلى الوراء . .

إن الغزو الشيوعى للمنطقة العربية ليس هو « عودة الروح » التى يحلم بها اليساريون . . وإنما هو الطمس الكامل لروح المنطقة وسلبها مقوماتها وتراثها .

إن ثمرة الزواج غير الشرعى بين الفكر المادى وبين هذه الأرض الطاهرة أرض الأنبياء . . لن تكون إلا مولوداً مشوهاً بلا نسب .

إنهم يستثمرون الأزمة الاقتصادية ويثيرون الرفض والسخط والحقد ثم يركبون على أوجاع الناس ويلوحون أمام الجياع بأن لديهم الدواء الناجع . .

ولكن الشيوعية هى الداء وليست الدواء . .

وهى سبب كل هذا الانهيار الاقتصادى الذى حدث فى مصر . .

- التأميم الذى انتهى إلى هبوط الإنتاج وتخلفه كماً ونوعاً .
- اضطهاد الخبرات والكفاءات وطرد أهل التخصص وتعيين أهل النفاق .
- تحكم مراكز القوى .
- سيادة الحزب الواحد والرأى الواحد .
- التبعية لروسيا .
- الديون الروسية .

• الحروب التى دفعتنا إليها روسيا لتستنزف المال والسلاح ولتغرقنا فى مزيد من الديون .

• تمزق الصف العربى .

وكلها أخطاء جرتنا إليها الحلول الماركسية التى نقلها عبد الناصر نقل مسطرة من المعسكر الشرقى .

وهل عرفنا طوابير الجمعية التعاونية إلا على أيامهم .

وهل عند الشيوعية إلا المزيد من نزع الملكيات والمزيد من التأميم والمزيد من القطاع العام والمزيد من الجمعيات التعاونية السائبة وبالتالى المزيد من المعاناة والفقر والبيروقراطية والفساد .

وهل عندهم إلا القمع والأساليب البوليسية .

وهل تنعدم الشكوى فى البلاد الاشتراكية إلا لسبب واحد . . إن الألسن مقطوعة والأفواه مكممة .

وهل الرخاء فى البلاد الاشتراكية إلا مجرد منشورات وتصريحات رسمية وأغان وبرامج إعلامية . . والطوابير الهائلة أمام الخيار فى موسكو وشوربة الكرنب هى أصدق دليل .

إن الجنة عند الشيوعية لم تكن إلا كذبة إعلامية .

والذين عاشوا وراء الستار الحديدى فى روسيا وبولندة والمجر يعرفون كم كانت هذه الجنة جحيماً .

ونحن نعيش كما قلت فى عصر الكذابين المحترفين ، ونشهد التزييف تديره أجهزة إعلامية والباطل تردده الأبواق الإذاعية ليل نهار ونقرأ التضليل يطبع على أنه علم والانحرافات تروج على أنها نظريات والعمالة للدول الأجنبية تمارس على أنها شرف وولاء للأممية والإنسانية والكفر ينشر على أنه حرية وتفتح .

وفى هذه الدوامة من الأحابيل الماكرة يغرقون شبابنا وهم فى سكرة مراهقتهم . . وهم أشد ما يكونون استعداداً للرفض والتمرد . . ويصنفون الخلايا من أولاد وبنات فى سن الشهوة ويزينون لهم الصحبة ويرفعون عنهم الحرج ليشدوهم بسلاسل غرائزهم إلى الانتماء الجديد .

هذا ما يحكيه طلبة الجامعة عما يجرى الآن من تنظيمات جديدة تبدأ فوق الأرض ثم تنتقل صفوة قياداتها بعد ذلك تحت الأرض حيث يصورون لهم أنهم سيكونون صناع التاريخ وطلائع المستقبل .

ولكن المستقبل لا يصنع بالتآمر والأحقاد والصراع الطبقى . . وعودة الروح لمصر لن تكون إلا بالعودة إلى القيم والمثل والمبادئ . . إلى المنابع النورانية لهذه الأرض . أرض الأنبياء . . وبغير ذلك لن يقوم لنا تاريخ ولن يرتفع لنا صوت . .

لاتعلموا شبابنا الأباطيل

ترى ماذا يشغل بال إنسان هذا العصر . . وفيم يفكر . . وماذا يعبد ،
إن تعداد عالم اليوم حوالى الأربعة الآف مليون منهم ألف مليون مسلم وألف مليون مسيحي وألف مليون شيوعى وألف مليون وثنى على وجه التقريب .. أى ينبغى أن نقول إن نصف العالم مؤمن مشغول بالله والنصف الآخر ملحد أو وثنى مشغول بمسائل أخرى . . ولكن هذا غير صحيح . . فخانة الديانة فى بطاقة الهوية لم تعد تعنى شيئاً .

لم يعد أكثر المسلمين مسلمين ولم يعد أكثر المسيحيين مسيحيين وإنما جرفت الحياة المادية الجميع وأصبح شاغل الكل هو تحصيل لذة حسية أو ثروة أو عقار أو متاع أو جاه أو سلطة أو رياسة أو كسب سريع عاجل بأى سبيل .

ومعبودات اليوم هى فاترينات البضائع الاستهلاكية والعربات والثلاجات والعمارات وأوثان اليوم هى صم اللذة الجنسية وصنم شهوة البطن وصنم الأنا .

وهى عند المثقفين صنم الدولة وصنم الأيديولوجية وصنم العصبية

والقومية وصنم الشعوبية وصنم التكنولوجية وصنم العلم وصنم الفن وصنم العقل . . والعجل الذهب هو الرب الواحد المتربع على عرش كل هذه الأصنام يسجد له الجميع ويسبحونه ويذبحون له القرابين .

إنها جاهلية على مستوى عال .

جاهلية عقلها ألكترونى وأسنانها ذرية ودماؤها بترولية ، وأقمارها صناعية ، ورجلها على القمر ، ويدها بلغت المريخ .

وفى دوار هذه المنجزات المادية الهائلة صور الغرور للإنسان أنه وحده صانع كل شيء وأنه الخالق والمشرع والمبدع والمهيمن لا شريك له .

وقد تسللت إلينا هذه الجاهلية من الغرب ومن الشرق ودخلت إلينا فى غرفة نومنا مع الصحيفة والمجلة وبرنامج الإذاعة ومسرحية التليفزيون وفنجان القهوة .

ثم تسللت إلى الكتاب المدرسى الذى فى يد الطالب ، وتسربت إلى المقررات التعليمية التى نلقنها للناشئة من الشباب وغمرت مكتبات الجامعة وأصبحت وزارات المعارف والتعليم طرفاً فى الجريمة دون أن تدرى . . فيما تفرض على طلبتها كل عام من مقررات .

وضمن ما يدرس الطالب من نظريات أصبح يقرأ أن الطبيعة خلقت النبات بصورة كذا ليتكيف مع الظرف كذا . . وأن الطبيعة خلقت للطيور أجنحة وللأسماك زعانف وللدواب أرجلا ، وأن المادة تطورت من التراب إلى الإنسان بمقتضى القانون الجدلى والمودع فيها ، ويتعلم طالب الاقتصاد أن قانون الحتمية التاريخية هو القانون الحاكم لحركة التاريخ ولتطورات المجتمع الإنسانى وأن الحتمية

الطبقية هى القانون الموجه للسلوك الفردى ، ويتعلم حتمية الحل الاشتراكى وحتمية الأخلاق وحتمية الشخصية .

ويتعلم طالب علم النفس أن الغريزة الجنسية هى أساس تكوين الشخصية الإنسانية (فرويد) وأن حوافز الأنا هى أساس علم النفس الفردى (أدلر) .

ويتعلم طالب الفلسفة نظرية المصادفة وكيف أن الكون جاء مصادفة ، وفى هذا العصر المفزع نرى أن العلوم قد تكاثرت وتعقدت فلم يبق للعلماء إلا أن يبحث كل واحد منهم عن تخصص دقيق، مما جعل العلماء معزولين أكثر وأكثر داخل نطاق تخصصاتهم . وهذا بدوره أفقد العلم نظرته الشاملة المستوعبة .

ونظراً لقصر عمر الإنسان وتعدد العلوم وكثرتها أصبح من المستحيل على العالم مهما أعطى عمره لعلمه أن يحيط بالعلوم كلها . وبالتالى أصبح من المستحيل عليه أن يعطى حكماً شمولياً على أى شىء .

وقد رأينا كارل ماركس يصدر حكماً عاماً على الأديان دون أى دراسة للدين الإسلامى وبمجرد استقراء محدود للمسيحية فى أوربا وكيف وقع بذلك فى خطأ فاحش .

ثم الكلام الكثير المزيف المنمق عن الحرية والديموقراطية وقد أصبحت الحرية فى عصرنا معناها التحلل من القيم والانفكاك من المثل والغوغائية ، والفوضوية .

وكأنما يعيد التاريخ نفسه فالديمقراطية التى بدأت فى أثينا بالغوغائية فأصدرت حكم الإعدام على سقراط انتهت فى عصرنا بإعدام المثل

والقيم والأديان والسخرية من كل شريف وكريم ، وعادت مرة أخرى إلى الفوضوية والغوغائية .

ورأينا الديموقراطيات التى تطلق على نفسها اسم الديموقراطيات الشعبية تعلن ظاهرياً أن الحكم بيد الشعب والواقع أن مقاليد أمورها جميعاً بيد فرد أو حزب يصنع بالكل ما يشاء . .

وهذا ما جربناه فى خلال عشرين عاماً خلت من ديموقراطيتنا الاشتراكية . . ثم كان دأب هذه النظم العصرية جميعها رفض ونبذ التشريع الإلهى وإعلان الإنسان سيداً وحاكماً مكان الله يقنن لنفسه ويشرع لنفسه ما يشاء من قوانين .

وقد رأينا بأعيننا عجز هذه القوانين عن ردع الانحراف ، ورأينا كيف تستفحل الجرائم وكيف ينعدم الأمن فى أمريكا أرقى بلاد العالم) .. ثم لم نأخذ درساً . . ولم نفد عبرة .

والكلام لوزارات التربية والتعليم والمعارف فى كل البلاد العربية .

كيف نترك هذه الأكاذيب تدرس للطلبة وكيف نضمنها مقررات رسمية دون أن تتضمن هذة المقررات تحليلا نقدياً

كيف يلقى إليهم الفكر المادى دون نقد ودون تعليق .

وكيف يلقى إليهم علم النفس الفرويدى دون نقد ودون تصحيح .

وكيف نقدم إليهم هذه الأشياء على أنها حقائق وعلوم على حين هى ظنون وفروض وتخمينات ثبت الآن خطؤها وخلفها التراث الأوربى وراءه فيما خلف من أساطير العضور الوسطى . .

وما تلك الحتمية التى نعلمها لأولادنا .

وما هى حتمية الحل الاشتراكى ، وقد رأينا الصين تخرج من تخلف الأفيون بحل اشتراكى ورأينا اليابان تخرج من دمار القنبلة الذرية بحل رأسمالى .

حدث هذا أمام أعيننا .

إذن لا توجد حتمية لحل واحد لاسواه . . بل أمامنا مجال اختيار لنختار دائماً ما يناسبنا . .

وسيظل الإنسان يختار بين الحلول إلى أن تقوم الساعة . . فلا حتمية فى المسائل الإنسانية .

وهذا ما يفرق الإنسان عن الجماد وهذا ما يفرق الإنسان عن كرة البلياردو .

فالإنسان يختار بين بديلات وكرة البلياردو تتحرك فى حتمية ودون اختيار .

وكما يقول ماكدوجال يتميز الكائن الحى بخاصية ينفرد بها بخلاف المخلوقات جميعاً . . وهذه الخاصية هى التلقائية . . والتلقائية موقف اختيار ذاتى يختلف عن حركة . المادة الجامدة . . فالكائن الحى يبادر بسلوك ونشاط تلقائى لا ترافقه علاقات ترابطية حتمية ملزمة وبذلك يخرج سلوك الإنسان عن دائرة الظواهر الطبيعية التى تتصف بالآلية . . وهذا معناه عدم خضوع الإنسان لقانون الحتمية العلمية : : فالمواقف والاتجاهات والانفعالات جميعها من سمات الكائن الحى وهى لا تخضع واقعياً ولا تجريبياً لمواصفات الحتمية من قريب أو بعيد (كتاب نحو منهج علمى و إسلامى للدكتور حسن الشرقاوى) .

وقد سبق لى أن نقدت الماركسية والفكر الجدلى والمادية التاريخية والحتمية الطبقية فى كتابى الماركسية والإسلام وكتابى الثانى « لماذا رفضت الماركسية » ويستطيع أن يعود إليهما من يريد تفصيلات أكثر .

ولا شك أن محاولة اعتساف مفتاح واحد لفهم الإنسان والتاريخ هى محاولة ساذجة فالقول بأن مفتاح الشخصية الإنسانية هى الغريزة الجنسية ليس أقل سذاجة من القول بأن مفتاح حركة التاريخ هو الصراع الطبقى .

وكل من المحاولتين كانت تبسيطاً مخلا لحقائق شديدة التداخل والتراكب والتعقد .

ومثل ذلك أن نقول بأن الكون جاء مصادفة .

أو أنه فى البداية كانت المادة ثم تطورت إلى فكر .

فمن كان هناك فى بداية الخلق ليقول عن علم وعن شهود إنه فى البدء كان كذا وكذا .

إن الأمر كله ظن وفرض ورجم بالغيب وهو عين مايتهموننا نحن به .

ثم إن القول بالمصادفة هو منتهى الجرأة فى كون كله قوانين محكمة منضبطة وكل حركة فيه بمقدار وكل عنصر بمقدار .

والقائل بهذا يهدف بداهة إلى القول بالعبث ثم هو يريد من وراء ذلك إلى أن يحل نفسه من جميع القيم ليعبث هو الآخر ويلهو ويخرب كما يشاء فى عالم جاء مصادفة وينتهى مصادفة .

والأعجب من هذا أن ندرس هذا الكلام للناشئين من شبابنا دون تعليق.

لقد كان مؤتمر مكة للتعليم الإسلامى أهم حدث فى أوانه لإعادة النظر فى مناهج التربية ولإعادة صياغة الكتب الدراسية .

وكمثال للأفكار المدسوسة فى كتب طلابنا نرى أن كتاب الفلسفة المقرر على المدارس الثانوية فى المغرب يقسم الفلسفة إلى ثلاثة أقسام . فلسفة أسطورية وفلسفة دينية وفلسفة علمية .. ثم يقول الكتاب للتلاميذ إن الفلسفة الدينية تطورت عن الفلسفة الأسطورية . . أى أن الدين نبت عن الأساطير . . ويدرس هذا الكلام على أنه علم وحقيقة مؤكدة .

ومثل هذا كثير . . فى الكتب التى يتلقاها أولادنا . .

وهذا نتيجة أننا عشنا عالة على العلم الغربى لسنوات طويلة نأخذ مافيه من طيب وخبيث دون تمييز . .

وفى أوربا ولد العلم مناهضاً ومعادياً للدين من البداية .. وفى الأسطورة الإغريقية يسرق برومثيوس شعلة المعرفة والنار الإلهية ويعطيها الإنسان اختلاساً وتعدياً على الله .. وهكذا أيضاً فهموا قصة أكل آدم من الشجرة فقد فسروها على أنها شجرة المعرفة وأن آدم بذلك اختلس المعرفة من الله تعدياً وعصياناً .

وهكذا جعلوا من العلم نقيضاً للدين وأمراً محظوراً أخذه آدم من الله سرقة واختلاساً .

وهو فهم خاطىء صححه القرآن . . فالله فى القرآن علم آدم الأسماء كلها . . وهو الذى علم بالقلم . . وعلم الإنسان ما لم يعلم .. بل أمر الإنسان بطلب العلم والزيادة منه . (قل رب زدنى علماً . .) .

وهذا هو الفرق بين النظرة الغربية والنظرة الإسلامية إلى العلم .

ونجد هذا الفرق أيضاً بين نظرتهم ونظرتنا للمرأة . . فالمرأة فى الأسطورة الإغريقية باندورا هى التى أتت بصندوق الشرور إلى الدنيا . . وهى كذلك نجس فى التوراة .. والمرأة الأوربية تدفع المهر للرجل ولا حق لها فى أن تدير أموالها . . بينما هى فى الإسلام لها الحق الكامل فى إدارة أموالها مستقلة عن ولاية زوجها . . وعلى الزوج أن يدفع لها المهر والنفقة . .

والمرأة فى الإسلام لها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات .

(ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) ٢٢٨ البقرة . .

ثم إن مفهوم العلم فى الغرب مختلف عن مفهومنا فعندنا الدين علم لأنه علم بالله والله هو أشرف معلوم .. وعندنا لا يصح العلم بدون تقوى ولا يصح بدون خلق .

والعلم عندنا وسائله الحواس والاستقراء والتحليل العقلى كما أن من وسائله التلقى بالقلب والاستمداد من الله .. فالله هو المستند النهائى لجميع الحقائق .. وذلك هو العلم اللدنى الإشراقى .

ولذلك كانت من وسائل العلم عندنا العبادة والطاعة والاستقامة بل هى الوسائل الوحيدة للتعرف على علوم الغيب المحجوبة .

والله يقول فى حديثه القدسى من عمل بما علم علمه الله علم ما لم يعلم .

فطاعة الله والتزام منهجه وسيلة إلى مزيد علم .. وهذا تأسيس على الحقيقة الأولى أن العلم كله من الله .

ولهذا كانت العلاقة وثيقة بين العلم والتقوى .

وهدف العلم عندنا لا يقف عند حدود استثمار البيئة وخلق المواطن وإنما يتعدى ذلك إلى خلق الإنسان الكامل الذى لا يتقيد بوطن أو لون أو جنس أو عرق . . كما يتعدى معرفة البيئة إلى معرفة خالقها .

أما هم فالعلم عندهم هو العلم المادى الوضعى فقط وسائله الحواس والاستنباط العقلى وهدفه استثمار البيئة وطلب القوة والغلبة والسيطرة .

ولا يقلل من علم العالم عندهم أن يكون فاسقاً وسكيراً بلا خلق مادام قد اخترع كذا كذا . . فالعلم شىء والعمل شىء آخر . . ولهذا يتصور الرجل الغربى أن الإسلام يمكن أن يقوم بتدريسه مدرس وثنى لأنه لا ينظر إلى الإسلام إلا على أنه مجموعة معلومات ولا يفهم أن الإسلام حياة وبعث روحى وانقلاب كامل فى السلوك وأنه لا يمكن تصور الإسلام منفصلا عن العمل فلا يصلح لتدريس الإسلام إلا رجل هو مثال وقدوة .

وانفصال العلم عن الدين هو الذى أدى إلى هذه المدنية العلمانية من فن وعمارة وأزياء وعادات وتقاليد وتكنولوجيا وسينما ومسرح وحرية جنسية وبارات وملاهى وعلب ليل وموسيقى الجاز الصاخبة ورسوم السوريالزم .. تلك الحياة التى تتحالف بكل مظاهرها لتنسيك الله ولتبقيك فى حالة غفله إلى أن تموت.

ومن هذه المدنية العلمانية خرجت اكتشافات هائلة مثل الذرة لتكون دماراً وهلاكاً وخراباً للإنسانية قبل أن تكون خيراً وبركة ونعمة .

والعلم الغربى يدعى الموضوعية ولكنا نراه فى أغلب الأمر تابعاً للأيديولوجيات والمذاهب والهوى السياسى (كما نرى فى علم الاجتماع والتاريخ والاقتصاد) خاصة فى مجال الاستنباط النظرى . . وهو دائماً فى الغرب موجه لأغراض

خاصة ومصالح خاصة ، ولهذا قلما نجد العالم الغربى الذى يستنبط من ملاحظاته العلمية نتيجة دينية . . ومن يفعل هذا يتهم بالتخريف الصوفى والخروج على المنهج العلمى .

هذا علمهم وهذا علمنا . . ومع ذلك عشنا وما زلنا نعيش عالة على ذلك العلم نأخذ منه بلا تمييز ونقلده بلا نظر ونحتقر تراثنا وهو كنز الكنوز الذى لا يقدر بثمن . . ونخرج أجيالا تشعر بالغربة فى بلادها لأنها تلقت علوماً زرعت فيها تلك الغربة .

فإلى متى . .

إلى متى نظل فى ذلك النوم الثقيل ومتى ننهض إلى رسالتنا ودورنا ومتى نتعرف على كنوزنا ونقدمها من جديد لعالم مريض أنهكته العلل .

الإسلام والوحدة العربية

● الوحدة العربية حلم وأمل وأغنية . .

وباسم الوحدة قامت مذاهب وسقطت نظم وولدت زعامات ، وعلى ذراع الوحدة ارتفع قادة واستشهد أبطال وحكم دجالون .

كانت الوحدة دائماً هى الموال المطرب الذى يحرك الشجون ، وكانت شجوناً بطول التاريخ وبعرض المستقبل .

أدركت إنجلترا وفرنسا ومن بعدهما أوربا وأمريكا أن الوحدة على الأرض العربية معناها قيام أقوى دولة فى العالم تملك المال والطاقة والعقيدة واجتماع هذه الأسلحة الثلاثة لأمة معناه العظمة والقوة التى لا تقهر ؛ ولذلك اتفقت جهود الكل على ضرب الوحدة وتفتيتها فى جميع العهود .

ولم تقبل روسيا إلا وحدة عربية تحت رايتها الشيوعية لأنها تعلم أنها لن تكون وحدة ذات بال . . فبعد نزع فتيل الدين من المنطقة سوف تتحول القنبلة العربية إلى قطعة من الحديد الخردة لا فعل لها ولا أثر . ويصبح المواطن العربى أجنبياً فى أرضه بلاهوية ولا بطاقة وذلك نسف من نوع آخر للوحدة من جذورها . وخلع للعربى من نسبه وانتمائه وتاريخه .

لقد اتفق الكل على إزهاق أنفاسنا وتشتيت شملنا واختلفت — أسلحتهم وأدواتهم من استعمار سافر يحتل الأرض إلى استعمار مذهبي يحتل العقول إلى استعمار اقتصادى ينهب الثروات ، إلى غزو فكرى يبلبل النفوس ويشوش الأفكار ، إلى دعوات انحلالية تبدد طاقات الشباب فى الجنس والمخدرات والعبث ! . ورأينا أرض الشام يقسمها الاستعمار إلى دويلات : سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ! . ونرى اليوم المؤامرات تحاول أن تقسم دويلة لبنان إلى قرى مسيحية وقرى مسلمة وقرى درزية وقرى شيعية ، ومن قبل حاولوا تمزيق بلادنا بالصراع الطبقى وحاولوا تمزيق السودان بالسلاح ذاته .

- مرة يحرضون الطوائف بعضها على بعض .
- ومرة يحرضون الأديان بعضها على بعض .
- ومرة يقسمون الناس إلى يمين ويسار .
- ومرة يقسمونهم إلى بورجوازية وبروليتاريا وأغنياء وفقراء .

وفى جميع الأحوال لا حل سوى أن يقضى طرف على الطرف الآخر ، وفى جميع الأحوال يتدخلون ليطول الصراع ويطول نزيف الدم وتستنزف الموارد . . ويشعلون الفتن ليعود كل طرف فينقسم على نفسه إلى شراذم يأكل بعضها بعضاً بلا نهاية حتى يتحول الكل إلى مسحوق وبرادة لا شأن لها .

وقد اجتهد الحكماء بطول التاريخ فى البحث عن مخرج . .

قالوا : إن العدو هو الاستعمار . . فلنقض على الاستعمار . .

- ولكن الحكم الوطنى الذى ورث الأرض كان فى أغلب الحالات

أسوا وأكثر ظلماً من المستعمر ، لأن الاستعمار خرج وترك عملاءه وترك الاقتصاد عميلا وتابعاً وترك العقول مخربة ، وترك العائلة منقسمة بعضها على بعض .

وأصبحت الصورة العادية للبلاد التى استقلت حديثاً صورة بلاد تتعاقب عليها الانقلابات العسكرية وتتعالى الهتافات وتدوى الشعارات وتجار الإذاعات ويسود الحكم البوليسى والرأى الواحد

وقالوا : إن الطريق إلى الوحدة هو الدولة العلمانية والنظام الواحد . وشاهدنا محاولات لتوحيد البلاد العربية تحت راية الاشتراكية الناصرية وهى محاولات جاءت بنتائج عكسية وأثمرت كثيراً من الانقلابات الفاشلة فى اليمن والعراق وسوريا قادها السلال والشواف وجاسم علوان وخلقت مزيداً من الفرقة والعداوة بين الأشقاء ..

وشاهدنا فى الجانب الآخر من العالم محاولة لخلق كتلة شيوعية موحدة من الصين وروسيا ترفع الشعارات نفسها وتدعو إلى النظام العلمانى نفسه ورأينا كيف أثمرت هذه الوحدة عداوة وتناقضاً أكثر من التناقض الذى بين أقصى الشرق وأقصى الغرب

وأمامنا مثال الحكم السورى والحكم العراقى وكلاهما حمل « اللافتة » نفسها والشعارات نفسها والأيديولوجية البعثية نفسها ومع ذلك رأينا بينهما من العداء والفرقة ما لم نر بين العرب واليهود !

وكان من الواضح أن موضوع الوحدة أعقد بكثير مما تصوره الحكماء الذين حاولوا تبسيط المسائل .

وكان من الواضح كذلك أن الأنظمة الموحدة والشعارات الموحدة

لا تكفى لتصنع وحدة ، ما دامت القيادات فى كل حالة ستتصرف بطريقة شخصية ، وسوف تتفرق إلى أهواء وأغراض .

والأشخاص لا يستطيعون التجرد من شخصيتهم ولا يملكون أن يتحولوا إلى عقيدة محضة إلا إذا كانوا أنبياء أو فى مرتبة الأنبياء، ولهذا استطاع النبي محمد عليه الصلاة والسلام أن يخلق أمة عربية موحدة من عدم . . من قبائل متقاتلة تعيش على قطع الطريق لأننا كنا أمام رجل تجرد لرسالته وكلمته وكان قوله فعله . . رجل ربانى لا ينطق عن الهوى ولا يتصرف عن غرض . . وإنما ينطق عن وحى . .

● يقول له ربه فى موضوع الوحدة (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وذلك سر آخر من أسرار الوحدة .. فالوحدة لا تتم بمجرد توحد أفكار وتوحد عقول وإنما لا بد من تأليف القلوب .. وذلك أمر لا يملكه إلا رب القلوب ولا تستطيع أية قيادة أن تؤلف قلوب الناس ولا تستطيع أن توحد أرواحهم . . وإنما هى على أكثر تقدير تطلق شعارات وتحرك العقول . والعقول تتبع الأهواء وتعشق الجدل وليس وراء الجدل إلا الفرقة .

ومن عجب أنه لا أحد يطرح الإسلام كسبيل وحدة وحينما يطرح الإسلام فى مجالس المثقفين نرى الذى يزوى بصره . والذى يشيح بيده والذى يمصمص بشفتيه فى استخفاف !

وينسى الكل أن الذى أعطاهم لغة واحدة يتكلمون بها والذى صنع منهم أمة عربية لها تاريخ هو الإسلام والقرآن ومحمد .

ومن قبل الإسلام لم يكن هناك وجود لشيء اسمه أمة عربية ولا كان هناك مفهوم لكلمة « أمة عربية » وإنما قبائل متناحرة وبلاد متخلفة تتكلم عدة لغات وشعوب تدوسها خيول الروم والفرس — والمقدونيين والمغول والهكسوس .

وأكثر من هذا يتصور هؤلاء المثقفون ذوو الياقات العالية أن الإسلام سبيل فرقة وليس سبيل وحدة لأنهم يفهمون الإسلام على أنه نقيض للمسيحية وأنه سوف يأتى بالعصبية الدينية وبالحرب على كل من هو غير مسلم .

وينسون أن المسلم يقول :

- (لكم دينكم ولى دين) .
- (لا إكراه فى الدين) .
- (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم) ٨ — الممتحنة
- وأن المسلم لا يقاتل إلا من قاتله ولا يعتدى إلا على من عاداه .
- (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) .
- وأن المسلم بار بالمسيحى وبار باليهودى .

وكان عمر بن الخطاب يخصص حبوساً وأوقافاً للإنفاق على ذوى العاهات من اليهود وللمجذومين من النصارى .

وأن الإسلام فى طبيعته السماحة واللين والوداعة وأنه دين يضم

فى عباءته كل خصمائه من الأديان الأخرى فى حنان وتفهم ما داموا قد سالموه ولم يبادروه العداء .

وأن الإسلام الذى فهموه بأنه نقيض للمسيحية ليس إسلاماً بل تعصباً منكراً ليس من الدين فى شىء . .

سيقول الماكرون . . ألم ينقسم الإسلام نفسه إلى شيعة وسنة ودروز وعلويين وخوارج ومعتزلة إلى آخر السبعين فرقة التى حملت بالسيف بعضها على البعض . . فكيف نطمع أن يوحدنا الإسلام إذا كان قد عجز عن توحيد نفسه .

وسوف ينشد أحدهم قول الشاعر :

سلام على كفر يوحد بيننا ويا مرحباً من بعدها بجهنم !

وسوف نقول لهم . . إن الكفر لن يوحد بينهم أبداً . . كما أن الإســلام لم يكن هو الذى فرق الناس إلى دروز وعلويين وخوارج ومعتزلة . . بل لم ينقسم الإسلام على نفسه ، وإنما المسلمون هم الذين فرقتهم الأهواء والأغراض وطوحت بهم الأطماع الساسية فى شتى الطرق والسبل ومزقتهم شر ممزق وجعلتهم أحاديث .

ولو أن أحداً سأل عمر بن الخطاب .. هل أنت شيعى أو سنى ! وهل أنت علوى أو درزى ؟ . وهل أنت يمينى أو يسارى ؟ . لضحك عمر على بلاهته . . فما فهم عمر الإسلام على أنه طرق وشوارع وسبل وإنما على أنه طريق واحدة وصراط واحد مستقيم ، الذى يخرج عنه إلى اليمين أو إلى اليسار لا يعود من الإسلام فى شىء .

(وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) . ١٥٣ – الأنعام

ذلك هو الإسلام البسيط الذى نعرفه والذى نريده ؛ وهو الإسلام الذى صنع لنا لغتنا ووحدتنا فى الماضى وهو الذى يستطيع أن يصنع لنا وحدتنا فى المستقبل وهو الذى يستطيع أن يتحدى الروس والأمريكان بمثل ما تحدى الروم والفرس بالأمس .

وهو الإسلام الذى لا ينظر إلى النصرانية على أنها نقيض يحاربه وإنما ينظر إلى النصارى على أنهم أشقاء وأهل مودة يؤاخيهم ويناصرهم .

(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون) . ٨٢ – المائدة

وهو الإسلام الذى يحترم العلم ويدعو إلى المزيد من العلم .

(وقل رب زدنى علماً) .

وليس هو الإسلام الذى يحارب العلم ويناقض العلم . . ذلك الإسلام المزيف الذى يتذرع به البعض ليقيموا مجتمعاً علمانياً بلادين !

ثم لماذا فى ساعات الخطر الماحق والأزمات المحدقة لا تعبئ الأمة العربية إلا صيحات . . الله وأكبر . . الله أكبر . . ورمضان . . صلاح الدين حقق معجزة النصر على الصليبيين فى رمضان وجنوده يهتفون . . الله أكبر . . وقطز حشد مصر فى رمضان ليواجه التتار بصيحة الله أكبر والسادات عبر إلى سيناء فى رمضان وحطم خط بارليف وجنوده يصيحون الله أكبر . . .

والقلة المسلمة قابلت الكثرة الكافرة المسلحة بالعدة والعتاد فى رمضان فى معركة بدر بصيحة الله أكبر . .

لماذا لم تستطع الشعارات الجوفاء أن تعبئ الأمة فى هزيمة ٦٧ .

ولماذا رجع جنود عبد الناصر منكسرين فى انسحاب ١٩٥٦ ولم تنفعهم شعاراتهم ؟ ثم لم يرد اليهود على أعقابهم بعد ذلك إلا موقف أيزنهاور .

وإذا كان الإسلام هو القوة الفريدة التى لها قدرة تعبوية ساعة الخطر ولحظة المصير .. وإذا كان الإسلام هو الذى يسارع فيجمع العرب كلما تهددهم الزوال . . فلماذا يشمئز المثقفون أصحاب الياقات العالية ؟ ولماذا يشيحون بالأيدى ويمصمصون الشفاه كلما تكلمنا عن الإسلام وكأننا تكلمنا إفكا ونطقنا زوراً ؟

وإذا كانت تلك هى حقيقة التاريخ وخريطة الواقع فلماذا هذا الإصرار على التجاهل . . إلا أن يكون هو المكابرة والعناد .

(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) . ١٤ — النمل

(يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) . ٨٣ — النحل

يقول أكثرهم اعتدالا حينما ينكشف عناده وتعنته . . لا ننكر أن الإسلام عامل له مكانه فى الوحدة .. بل نقول لهم ويقول التاريخ ويقول الواقع . . بل هو العامل الأول والحاسم والقاطع فى جميع لحظات المصير .

تلك هى الحقيقة ولهذا يخشى كل أعدائنا من روس وأمريكان

وأوربيين – الإسلام ولا يريدون له صوتاً فى الأرض العربية لأنهم يعلمون أنه الصوت الأسطورى الذى سوف يصنع معجزة الوحدة على الأرض العربية . . وإذا توحد العرب وفى يدهم المال والطاقة والعقيدة – فتلك دولة الحق التى ستعلو على كل الدول ولن يقف أمامها شىء . !

أيأتى ذلك اليوم . . ؟

نعم . . حينما يأتى الإيمان الكامل والمؤمن الكامل .

ذلك المؤمن القادم الذى هو ثمرة التوحيد سوف يكون أول من ينتفع بثمرة التوحيد ، فتتوحد شخصيته ويتوحد اتجاه مشاعره نحو مصدر واحد للتلقى فلا تتوزع عواطفه . ولا يتوزع انتباهه ولا تتشتت نفسه . وبهذا التوحيد يجتمع همه وتتوحد قبلته وتتوحد أشواقه وتنتظم أفكاره كأنها الحبات سلكت خيطاً واحداً !

وبمثل ما فعل التوحيد فيه فإنه يفعل فى الأمة فتتوحد ثم فى الأمم فتتآلف وراء قبلة واحدة وغاية واحدة فتتوحد الأهداف وتتوحد المسيرة.

وذلك هو سر التوحيد السارى فى الوجود . . يقول ربنا .

(إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) .

وتلك هى الوحدة وراء الواحد . ذلك هو القرآن المقروء .

ولكن ما يبقى هو القرآن الذى يمشى على الأرض . . ينقصنا رجال يمشون على الأرض كأنهم قرآن . . كما كان يمشى محمد عليه صلوات الله وسلامه . . وكما كان يمشى أصحابه .

إذا ظهر هؤلاء الرجال الربانيون فذلك هو البعث الحق . .

القاموس الماركسي

لم تشهد البلاد العربية فى تاريخها فرقة وانقساماً كما نرى حولنا اليوم ، وقد أصبح العداء وتبادل الاتهامات هو تحية الصباح بين كل جارتين . . اليمن الجنوبية واليمن الشمالية . . عدن والسعودية . . الكويت والعراق . . العراق وسوريا . . سوريا ولبنان . . مصر وليبيا . . ليبيا والمغرب . . المغرب والجزائر . . وينطلق الرصاص على الحدود ويموت الأخوة بلا قضية . . لأن أحدهما كان على يسار الآخر أو على يمينه .

والعدوى انتقلت إلى أفريقيا وسرحت فى جسم القارة تقسمها وتأكلها قطعة قطعة ، وكل شيء أصبح قابلا للقسمة . . ودخولك فى اليسار لم يعد يحميك . . فقد تفاجأ بزميل كفاحك فى الفجر ينشق عليك ويتزعم كتلة أكثر منك يسارية . . وتكتشف أنك أصبحت يمينياً رجعياً . . وقد تطير رأسك كما حدث للرفيق سالم ربيع . . أو تنفجر فيك رسالة ملغومة كما حدث للرئيس اليمنى .

ولا نهاية للانقسامات فكل يسار على يساره يسار وكل يمين على

يمينه يمين . . والحمى اليسارية إذا أصابت جماعة ظلت تنقسم على نفسها بنوع من الإنفجار المتسلسل حتّى تنتهى إلى شراذم ومسحوق وبرادة لا قيمة لها .

ولا يتكلم الرفاق ولا يتحاورون ولا يحاولون الوصول إلى تصفية فكرية وإنما يتكلم الرصاص ليصل إلى تصفيات شخصية . . ويصعد كل واحد على جثة الآخر ليعود ثالث فيصعد على جثته ولا نهاية . . والشريف اليوم يصبح خائنا فى الغد . . وخلاف الرأى يتحول إلى تلطيخ أخلاقى واتهام بالعمالة . . والمتكلم فى العادة يكون هو الحاكم المطلق ولا يملك أحد أن يرد عليه .

وذلك هو حال التراث الماركسى فى التطبيق . . نراه دائماً يتحول إلى أشخاص وأهواء وثارات ومادة للخصومة واختلاف أزلى بلا هدنة وبلا نهاية . . وشعار الماركسى هو كلمة جوركى الشهيرة . . . « جئت إلى العالم لكى اختلف معه » . . لم يقل لكى اختلف مع الباطل . . بل مع العالم أيّاً كان هذا العالم على الحق أو على الباطل . . لأن التناقض والصراع هو مفهوم التقدم عندهم . . وهو مفهوم يعطى رخصة القتل والتصفية الجسدية لأى زعيم يجلس على الكرسى .

والماركسية تزود أتباعها بقاموس مرن يسهل عليهم التخليط والتدليس فى المعانى والتزوير فى الأهداف .

نحن قد تعلمنا منذ الأزل بأن الديمقراطية هى حكم الشعب . . ولكنا نراهم يبتدعون ديمقراطيات عجيبة الحكم فيها لفرد واحد . . هو لينين أو ستالين أو بريا أو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى أو النظرية

الماركسية أو الطبقة صانعة التاريخ . . أو الطبقة صاحبة المصلحة . ولا يعييهم الجدل . . فهم سفسطائيون مجادلون بالفطرة . . يتقنون فن تبرير المذابح .

ألم نتعلم أن الحرية هى أن تقول كلمتك فى وجه السلطة وأن نعبر عن رأيك فى وجه الاستبداد . . فرأيناهم يطلعون علينا بتعريف جديد من قاموسهم يقولون فيه أن حريتك هى أن أطعمك ، فإذا أطعمناك فليس لك عندنا شىء . . وسموها عندهم بالحرية الاجتماعية ونسوا أن الحيوانات هى الأخرى تجد ما تأكله ولا يقول عنها أحد أنها حرة .

ألم نتعلم بطول التاريخ أن الاستقلال هو طرد الأجنبى المحتل . . فرأيناهم يعلموننا أن دخول الدبابات الروسية إلى المجر وقهر الإرادة الوطنية واحتلال التراب المجرى هو بعينه التحرير والاستقلال المجرى .

ثم إذا ارتفع صوت دوبتشك برأى حر مستقل فى بلده تشيكوسلوفاكيا قالوا لنا هو خائن وعميل ينبغى التخلص منه ، وبادروا إلى اقتحام تشيكوسلوفاكيا بالدبابات لتحريرها على زعمهم .

فإذا خرجت انجلترا من الهند وقامت شركات للبحث عن البترول فذلك هو الاستعمار الجديد .

وإذا اشترت انجلترا القطن الخام من بلادنا ثم قامت بتصنيعه وبيعه بسعر بورصة المنسوجات فتلك مؤامرة بشعة . . وإذا أخذت روسيا منا القطن الخام ثم عادت فباعته خاماً دون تصنيع بالسوق الرأسمالية وضاربت عليه وكسبت أضعاف ما دفعت لنا فتلك اشتراكية .

ألم نتعلم أن الانتخاب الحر هو أن يكون لنا حق الاختيار بين عدة مرشحين . . فجاءوا هم بتعريف مبتكر وعلمونا أن الانتخاب الحر هو ألا نجد من نختار إلا مرشحاً واحداً نقول عليه : لا . . ونعم .

ألم تصعد نتائج الاستفتاءات على أيامهم فرأيناها تصل فى سوريا إلى ٩٩,٩٩٩ ٪ .

ولو أن الله استفتى على ذاته لما فاز سبحانه وتعالى بهذه النسبة الخرافية . . وهو القائل جل وعلا :

« وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » . فلن يصوت مع الله إلا أقلية .

هكذا يقول رب الجلالة عن نفسه .

ولكنه القاموس العجيب .. الذى أبدعه مسيخ دجال هذا العصر.. صاحب المكر العبقرى . . كارل ماركس . . ليوقع الناس بعضهم فى بعض إلى الأبد . . بلا نجاة وبلا مخرج .

ألا تلاحظ أنهم جميعاً الرافضون كلهم يتحدثون فى إذاعاتهم عن « الوحدة » . وهم يبثون « الفرقة » .

وفى أى شيء يتخاصم البعث السورى والبعث العراقى وكلاهما يرفع نفس الرايات ونفس الشعارات ونفس اليسار السياسى المتطابق جملة وتفصيلا .

ولكنها كلمات . . مجرد كلمات بلا مدلول . . كلمات صابونية تعنى الشيء كما تعنى نقيضه .

أنه ذلك القاموس العبقرى .

وفى هذا القاموس أن الغاية تبرر الواسطة .. وأن المطلوب منك أن تكذب وتصانع وتلبس لكل بيئة لبسها . . فإذا فشلت فى معركتك مع الدين فعليك بالمهادنة ولترفع شعار « قضية الله يا إخوان غير مطروحة عندنا . . وما نحن إلا طلاب عدالة . . لنفكر فى المشاكل الموجودة وندع جانباً قضايا الغيب » . . . فإذا فشلت المهادنة فعليك بأن تؤذن وتلبس لباس الحجاج وتغير بطاقتك إلى الحاج فلان وتدعو إلى الله وتقيم الأذكار . . وتقول أنا ماركسى مسلم . . أنطق بالشهادتين.. مالكم ومالى يا إخوان . . أتشقون قلوب الناس .

إن الهدف هو الوصول إلى السلطة بأى سبيل ، فإذا وصل هذا الحاج إلى الحكم فإنه سوف يغرس خنجره فى صدرك فى اليوم التالى لوصوله . . ولن يسمى ما حدث غدراً . . وإنما هو عندهم فى قاموسهم اسمه « استراتيجية مرحلة » اسم لطيف ذكى للنفاق والغدر والخديعة .

ثم أن هذا الغزو الفكرى قد اتخذ لنفسه طلائع زحف من النقاد احتلت مواقع التقييم فى الصحافة والكتاب وراحت تتابع الأقلام التى تكتب واحداً واحداً . . إذا رأت أحدها يخرج عن الخط الأيديولوجى المطلوب وضعته مع الرجعية العميلة وصنفته مع قوى التخلف والاستعمار . . ودائماً يجعلون من الخلاف معهم مطعناً خلقياً وخيانة . . ودائماً يخلعون على أنفسهم أسماء الشرفاء والتقدميين والعلميين والموضوعيين ويخلعون على خصومهم فى الرأى أسماء الخونة والعملاء والرجعيين وأذناب الاستعمار وصنائع الإقطاع والامبريالية .

وقد شهدت مصر صنوفاً من هذا الإرهاب الفكرى طيلة السنوات التى ركب فيها اليسار موجة الحكم .

وقد نسوا وتناسوا فى قاموسهم أن الذى يشهد على شرف إنسان ليس ادعاءه ولا قوله بلسانه . . وإنما أعماله وأخلاقه هى وحدها التى يمكن أن تشهد له أو عليه بالتقدمية أو الشرف أو العلمية أو الموضوعية .

وهل كان ماركس علمياً حينما اختار من مراحل التاريخ الفترات التى تناسب دعواه وهواه وأغفل الفترات الأخرى التى تكذب نظريته .

وهل كان علمياً حينما استخرج من هذه الرؤية الجزئية أحكاماً كلية ادعى أنها تحرك التاريخ برمته .

وهل كان فرويد اليهودى الآخر علمياً حينما استخرج من دفاتر مرضى الهستيريا نظرية ادعى أنها تنطبق على كل الأصحاء ؟

أنما هو كلام فى كلام . . واصطلاحات وألفاظ عنكبوتية . . ومتاهات لولبية . . ومخادعات منطقية .

وهم السوفسطائيون الجدد بعينهم .

ولم تثمر هذه المبادىء حينما حكمت فى بلادنا إلا الخصومات والمذابح . . ولم تثمر فى المجر وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا إلا خلافات واحتلال بعد احتلال .

وإذا كانت تقيم مصنعاً هنا أو هناك أو ترصف طريقاً أو تبنى سداً . . فإنها تهدم الإنسان وتنزل به من ذراة الروحية إلى سراديب الأحقاد والأطماع .

فنرى القلة الحاكمة من أعضاء الحزب الشيوعى تصعد إلى كراسى الصفوة حيث كانت تجلس الطبقة الأرستقراطية القديمة التى أزاحوها بالدم والرصاص . . ونراها تعيش مثلها حياة الوفرة والرخاء وتركب عربات الزيم وتنفرد بشوارع وأحياء وفيللات لايزاحمها فيها أحد وتتنقل بين المصايف والمشاتى وتسافر وتستمتع بينما الشعب المطحون يقف طوابير أمام الجمعيات التعاونية ليأخذ نصيبه من الكرنب والبصل .. ويترا كم كل أسرتين فى غرفة . . ويعيش حياته سجين بلده لا يستطيع أن يخرج منها . . فإذا ارتفع صوت باحتجاج فإنه لا يلبث أن يختفى هو وصاحبه .

وتصدر جميع الصحف تهتف وتهلل للموجود وكأنها نسخ مكررة من أصل واحد . . وتغرق الإذاعات الشباب فى المسيرات والأناشيد والبيانات الموجهة .

وما يتبقى عند الشباب من طاقة تتولاها المنظمات الشبابية أولا بأول بالمحافل التى يقيمونها ومؤتمرات السلام التى يرقص فيها الأولاد والبنات ويشربون ويتعانقون حتى الإعياء .

وذلك هو حال الإنسان فى جنتهم الموعودة .

وتلك تجربتنا مع اليسار . . ولذلك رفضناه .

الخروج من الجاذبية الأرضية

« ثالوث » مقدس أصبح معبود الشباب هذه الأيام .

هذا « الثالوث » اسمه ثالوث الكرة والحب والتليفزيون .

لا تكاد هموم الشباب وانشغالاتهم تخرج عن هذا الثالوث .. فهم إما شباب عقولهم فى أرجلهم « لاعبو الكرة ومشجعوها » أو شباب عقولهم فى عواطفهم وشهواتهم وهؤلاء هم المشغولون بمزاولة الحب أو الفرجة على الحب فى السينما والتليفزيون !

فهم شباب اختاروا أن يعيشوا بلا رأس .

أو هم قد استأصلوا رأسهم واكتفوا بالحياة بأرجلهم وبالنصف الأسفل من جسدهم لأن ذلك أسهل وأمتع . . ولأن هذه الحياة الحسية المادية لا تكلف صاحبها أن يعلوا على نفسه ويجاهد حيوانيته ويكون إنساناً يفكر ويتأمل .. والنتيجة أن هناك حالة « قصور ذاتى» عامة استسلم فيها الكل لفعل الجاذبية الأرضية ، ولسلطان العادة والعرف والذيوع ولما يسمونه منطق العصر وحكم الأمر الواقع !

وتعاطى الحب لا يختلف كثيراً عن تعاطى أقراص « الفاليوم »

فهو أسلوب آخر للغيبوبة ونسيان ما يقتضيه العقل من العقلاء .

وهكذا ينقضى الوقت و يمر العمر فى أحلام كاذبة ومراودات وتهويمات وتليفونات وخطابات وتأوهات !

و يخيل للشاب أنه يعيش حياته .

و بالمعنى الإنسانى هـــو فى الواقع يفقدها أو يموتها . . وهو يكتشف ذلك حينما يصدم المرة بعـــد المرة فيمن يحب وحينما يرى الشعرات البيضاء تغزو رأسه وهو ما زال على طفولته يلهو دون أن يحقق فى مشوار الإنسانية شيئاً يذكر :

ولو توقف لحظة وسأل نفسه . . ماذا أفعل ؟ ماذا حصت لنفسى . . وماذا أضفت بحياتى و بوجودى ؟ ألهذا خلقت ؟ ألهذا ولدت وعانيت وتعلمت ؟ ولو مضى فى التـــأمل لاكتشف أنه لا يسير .. ولا يتقدم وإنما هو واقف « محلك سر » طواف مثل ثور محجوب العينين يحرث فى البحر !

والقلة التى حاولت أن تخترق نطاق الجاذبية الأرضيـــة سقط أكثرها واحترق فى الغلاف الجوى ومن هؤلاء أحزاب الرافضة الذين يعيشون فى خلايا شيوعية تحت الأرض يحلمون بتغيير التاريخ أو الرافضة من النوع الآخر الذين يحاربون تحت راية الجماعات الدينية المتطرفة، و يحاولون هدم كل شيء وتكفير كل شيء باسم الدين .

وهؤلاء خرجوا من فلك شهواتهم الجنسية ، ولكنهم سقطوا فى فلك شهوات نفسية أخطر وأسوأ هى شهوات الحكم والتسلط والحقد وفرض ذواتهم وأفكارهم وأحقادهم على الآخرين فهم ما زالوا على الأرض لم يبرحوها وإن تصوروا أنهم استعلوا وتساموا على أقرانهم .

والمتعصبون من جميع الملل لا دين لهم فى واقع الأمر ولا يدينون إلا بنفوسهم ولنفوسهم . . ورب كل واحد منهم هو نفسه وفكرته ! وهم وثنيون عباد أصنام . . وإنما هم قد استبدلوا أصنام الحجارة بأصنام المذاهب .

وهم يقتلون بعضهم بعضاً فى أثيوبيا وعدن ، ويفعلون ما فعله الخوارج والقرامطة بالأمس باسم الحق والدين . . والحق والدين منهم براء .

وقد تصور الخوارج أنهم مسلمون كما تصور منجستو وعصابته أنهم مصلحون وأنهم أهل حق !

وإنما أهل الدين والحق هم أهل الحلم والسماحة والوداعة والصبر والاعتدال وسعة الصدر وسعة الأفق وهم الذين يقولون :

(لا إكراه فى الدين) .

(فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

(أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

(وقل اعلموا فسيرى الله عملكم) .

(قل كل يعمل على شاكلته) .

(واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا) .

(قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) .

(لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) .

(لكم دينكم ولى دين) .

وعلامة اختراقك لنطاق الجاذبية الأرضية هو تخلصك من

جميع التعصبات العمياء وتجاوزك واستعلاؤك على كل هذه الشهوات التى ذكرناها وخروجك من إسارها .

والدين لا يطلب منك أن تقتل شهواتك وإنما يكفى أن تحكمها ولا تدعها تحكمك !

والخروج من النفس فى الإسلام لا يكون بقتل النفس بل بإحيائها .

وحياة النفوس بإخراجها من شريعتها الحيوانية وتطويعها للشرعة الإلهية .

وذلك هو الخروج من نطاق الجاذبية الأرضية إلى فضاء الكون حيث تنطلق النفس مثل السفينة الفضائية تسيرها القوانين الإلهية التى تسير الأفلاك وتحميها فى رحلتها كما تحمى النجوم والمجرات .

وأسرع الناس خروجاً من نطاق الجاذبية الأرضية هم أهل الله الذين تخففوا من أحمالهم وأثقالهم وألقوا بنفوسهم وراء ظهورهم وتخلصوا من جميع الانتماءات وخلعوا كل العبوديات ، وكسروا القيود والسلاسل التى تقيدهم بجميع الأصنام والآلهة الوهمية . . وجعلوا من لا إله إلا الله . . أنفاسهم ودقات قلوبهم وصحوهم ونومهم وطعامهم وشرابهم .

والمتدين لا يعرف إلا صراطاً واحداً مستقيماً ليس فيه يمين ولا يسار لأن الحق عنده واحد ، وليس على يمين الحق ولا على يساره إلا الباطل .

ولم ينقسم الدين إلى فرق واتجاهات إلا بظهور الأهواء والمصالح

الشخصية ، وبظهور موجة التقليد للفلسفة الإغريقية ومذاهبها . .
وإنما هو فرقة واحدة ومنهاج واحد وصراط واحد .

(وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) ١٥٣ – الأنعام .

(ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) ٣١ – ٣٢ الروم .

وقد انقسم النصارى بعد عيسى إلى بضع وسبعين فرقة .

وانقسم المسلمون مثلهم .

وما قال عيسى ومحمد إلا شيئاً واحداً . . هو ما قاله الأنبياء من قبل من آدم إلى إدريس إلى نوح إلى إبراهيم إلى يعقوب وإسحاق وموسى وجميع رسل الله .

ولكن أهواء الأتباع وتحيزاتهم كانت تمحو وتثبت وتغير وتبدل وتحرف .

وكلما طال على الناس الأمد وامتدت بهم سنوات الفترة أصاب عقائدهم الفساد . . فعاود الله الوحي وأنزل الرسول بعد الرسول : ليصحح ما فسد . . حتى ختم الله بالنبي الخاتم وأعلن أنه سيحفظ كتابه بنفسه :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

(وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته » .

وقال النبي الخاتم صلوات الله عليه لقومه : « ستتفرقون من بعدى

بضعاً وسبعين فرقة كما تفرق الذين من قبلكم ولا تنجو من هـذه الفرق إلا الفرقة التى تسير على قدمى » .

ومات النبى ، وتفرق المسلمون وراح يقتل بعضهم بعضاً كما تفرق النصارى وقتل بعضهم بعضاً كما يفعل الشيوعيون اليوم أتباع نبى الوثنيـة فيقتلون بعضهم بعضاً . . وكل هؤلاء القتلة كانوا أهل أطماع وشهوات وأحقاد ومصالح . بعضهم تنكر فى زى المسلمين وبعضهم فى زى النصارى وبعضهم أسفر عن وجهه وقاتل لأهوائه جهاراً . . وكلهم إلى هلاك إلا أهـل الصدق الذين استطاعوا الانفلات والانطلاق والخروج من نطاق الجاذبية الأرضية . . وجاذبية النفس . . وجاذبية الشهوات . وجاذبية المصالح وأغلال الزمان والمكان والمادة . . وتحرروا وطاروا فى سماء القيم والمثل .

وكل واحد من القتلة الذين ذكرناهم كانت له دعوى عريضة بأنه من أهل الحق .

وكل الناس أصحاب دعاوى عريضة .

ولهذا اقتضى العدل الإلهى أن يخلق الله الدنيا لتفتضح الدعاوى وتظهر أسرار القلوب .. وجعل الله الدنيا حافلة بالزينة والمغريات ليجد فيها كل صاحب هوى ما يوافق هواه ولتمتد الأيدى فتكشف أصحابها وليعرف المسلم من المجرم .

والإسلام ليس بطاقة ولا وراثة .. والحق ليس دعوى وإنما هو قلب ومنهج حياة .

والامتحان قائم منذ الأزل . . والبلاء مستمر . ولا إعفاء لأحد .

والقليل القليل هم الذين يثبتون على الحق .

اطلبوا من الله السلامة .

وليستجمع كل منكم همته وعزمه ليخرج من قبضة الجاذبية المهلكة .

جاذبية الأرض والنفس والمصلحة والهوى والشهوة . . وسلطان الثالوث المهلك الذى يهيمن على الشباب .

الفهـرس

صدر للمؤلف

٤٥- لماذا رفضت الماركسية
٤٦- نقطة الغليان
٤٧- عصر القرود
٤٨- القرآن كائن حَىّ
٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامى
٥٠- نار تحت الرماد
٥١- المسيخ الدجال
٥٢- أناشيد الإثم والبراءة
٥٣- جهنم الصغرى
٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر
٥٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة
٥٦- الإسلام ... ما هو ؟
٥٧- هل هو عصر الجنون ؟
٥٨- وبدأ العد التنازلى
٥٩ - حقيقة البهائية
٦٠- السؤال الحائر
٦١- سقوط اليسار

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود — **صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢**
روايات مصطفى محمود — **صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢**
مسرحيات مصطفى محمود — **صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢**
رحلات مصطفى محمود — **صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢**

حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

رقم الإيداع		١٩٩٥/٨٩٠٣
الترقيم الدولى	977 - 02 - 5068 - 6	ISBN

١ / ٩٥ / ٤٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائماً على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.



دار المعارف

